الأستاذ محمد الغيلاني
m.elrhailani@umi.ac.ma
ماستر
الفلسفة والأنظمة المعرفية للخطاب

محاضرات

في

الأَنْظِمَةُ المَعْرِفِيَّةُ للْخِطَابِ الْفَلْسَفِيِّ الْحَدِيثِ

ديكارت نَمُوذَجاً

الدكتور محمد الغيلاني
أستاذ الفلسفة
جامعة مولاي إسماعيل

مارس 2020

يمنع استغلال هذا المطبوع لأغراض ربحية

المحتويات

مُختصَرُ بِنْيَةِ نصّ التّأمّلات الميتافيزيقيّة **3**

تَنْويهٌ **4**

«التّأمُّلات الميتافيزيقيّة» لـ «ديكارت» **5**

- في التّأمّل ومُقتضَياتِه **5**
- في الْبَدءِ كَانَ الشَّكُ، الشّكُ أوّلاً **5**
- فكرةُ «الله» في التّأمّلات: وَضْعِيّتُهَا وَوَظَائِفُهَا **9**

الدكتور محمد الغيلاني

مُخْتَصَرُ بنْيَة نَصِّ التَّأمُلاَتِ المِيتَافِيزِيقيّةِ

- رسالة إلى قراء السربون
- مقدمة ديكارت لعموم القراء
- مختصر التأملات الستة

التأمل الأول: في ما يمكن إبطاله بالشك

1- خطأ بعض الآراء

2- الشك في وجود المحسوسات

3- الشك في الجواهر الرياضية

التأمل الثاني: في طبيعة النفس الإنسانية وكون معرفتها أيسر من معرفة الجسم

1- كيف الخروج من الشك؟

2- ما أنا؟ أي شيء أكونه؟

3- ما هو الشيء الذي يفكر؟ (كيف نعرف شيئا بوصفه مفكرا؟)

4- قطعة شمع العسل: كشيء محسوس

التأمل الثالث: في الله ووجوده

1- بعد بحث الذات العارفة يجب بحث الأشياء القابلة للمعرفة

2- دراسة أفكاري

3- ما هو مصدر أفكاري؟

4- مضمون أفكاري

5- فحص فكرة الله

التأمل الرابع: في الصواب والخطأ

1- يمكن اكتشاف طريق نحو المعرفة انطلاقا من فكرة الله

2- كيف أفسر انخداعي؟

3- ما السبيل إلى تجنب الخطأ والزلل؟

التأمل الخامس: في ماهية الأشياء المادية (جوهرها)، في الله، مرة أخرى، ووجوده

1- بحث الأشياء المادية

2- تطبيق الخلاصات على فكرة الله لإثبات وجوده

3- مقتضيات الوجود الضروري لله

التأمل السادس: في وجود الأشياء المادية والتمييز الحقيقي بين روح وجسم الإنسان

1- كيف نثبت وجود الأشياء المادية؟

2- هل يمكننا معرفة شيء ما عن طريق الحواس؟

3- فحص ما تعلمنا إياه الطبيعة

تَنْويهٌ:

سَبقَ للأُستَاذ أَن قَدمَ أَربع مُحَاضَرات في الأَنظمَة المَعرفية للخطَاب الفَلسَفي الحَديث «**ديكارت**» نمُوذَجا من خلاَل مُؤلفه «**التأمُّلاَت الميتَافيزيقيَّة**» (بغلافٍ زَمني يَزيد قَدرُهُ عَن 8 سَاعَاتٍ). وللتّذكيرِ فَإنَّ الأُستَاذَ تَنَاوَلَ في هَذه المُحَاضرَات المَدَاخلَ الأَسَاسيَّةَ لفَهْم النَّصّ، كما تَطرَّق إلى **التَّأمُّل الأوَّل والتَّأمُّل الثَّاني والتَّأمُّل الثَّالث**، بالدَّرس وَالتَّحْليلِ والتَّفسير. وَعَليْهِ، فَإنَّ هَذه الوَثيقَةَ تُعَد تَكْمِلَةً لِمَا سبَق وتَعميقاً لَهُ. كما أَنَّ المُحاضراتِ السَّابقة والمحاضرات الَّتي يتمُّ تَنزيلُهَا على المِنصَّة الجَامعيّة لاَ تُغْني عَن القراءَات والاجتهَادات الّتي يُفترَضُ أَن يُنجِزَهَا كُلُّ طالبٍ وطالبةٍ.

مَوضُوع هذه المُحَاضرة هو مُحَاوَلة لرَصد أَهمّ عَنَاصر إشكاليَّة نَصّ «**التأملات الميتافيزيقية**».

مُتَمَنَّيَاتي لَكُم جَميعاً بالتَّوفِيقِ.

الدكتور محمد الغلاني

«التَّأَمُّلَاتُ الْمِيتَافِيزِيقِيَّةُ» لِـ «ديكارت»

⇦ يُفْصِحُ ديكارت عَنْ مَآخِذِه لِعُلُومِ عَصْرِهِ لِكَوْنِهَا مُؤَسَّسَةٌ عَلَى مَبَادِئَ غَيْر صَلْبَةٍ (غيْر مُؤكدة وغيْر يَقِينِيَّةٍ).

⇦ تُوفِّرُ **الْمِيتَافِيزِيقَا الدِّيكَارتِية** أُسُساً جَدِيدةً لِلْعِلْمِ.

⇦ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَعُدَّ مِيتَافِيزِيقَا دِيكَارت نِظَاماً بِقَدْرِ مَا هِيَ **تَمْرِينٌ فِكْرِيٌّ**.

• فِي التَّأَمُّل وَمُقْتَضَيَاتِهِ

- ✓ «أَنَا» الديكارتي ليسَ فَرِديا.
- ✓ «أَنَا» هوَ ذَاتٌ، وَلَيْسَ ديكارت ذَاتَهُ، ذَاتٌ إِنسَانِية.
- ✓ «أَنَا» لَيْسَ هُوَ أَحَدٌ بِعَيْنِهِ.
- ✓ «أَنَا» مَفْصُولٌ عَنِ الْجِسْمِ.
- ✓ «أَنَا» جِسْمٌ مِيتَافِيزِيقِيٌ.
- ✓ الذَّاتُ مُجَرَّدَةٌ عَنْ كُلِّ خَاصِيَّةٍ وَعَنْ كُلِّ تَمَيُّزٍ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الذَّوَاتِ: إِنَّهُ مُجَرَّدُ ذَاتٍ مُفَكِّرَةٍ لَيْسَ إِلَّا.
- ✓ وَعَلَيْهِ فَـ«أَنَا» هُوَ أَيْضًا «أَنْتَ»، إِنَّهُ كُلُّ ذَاتً مُتَأَمِّلَةٍ. إِنَّهُ «أَنَا» القَارِئُ أَيْضًا وَ«أَنَا» كَوْنِيٌّ يُمَثلُّ جَميعَ المُمَارسينَ لهَذَا التَّمْرين الرُّوحِيّ.
- ✓ إِنَّهَا دَعْوَةٌ لِخَوْضِ مُغَامَرةِ التَّأَمُّلِ هَذِهِ، تَجْرِبَةٌ بِوُسْعِنَا أَنْ نَحْيَاهَا بِدَوْرِنَا.

• فِي البَدءِ كَانَ الشَّكُّ، الشَّكُّ أَوَّلا

- ✓ لاَ يَبدَأ التَّأَمُّلُ من دُون مُسَاءَلَة العَالَم (استفهَامه)، وأخذ المَسَافَة مَعَ المعتَقَدَات (العَادَات الفكريَّة المعتَادَة).
- ✓ إن كنَّا متأَكّدينَ بالمطلَق من صحَّة آرَائنَا، فإنَّه منَ المستَحيل التَّفكير فيهَا.
- ✓ مَا لَم نتَسَاءَل يَكون منَ المستَبعَد أن نفكّرَ ولَن نَر في التَّفكير أيَّة فَائدة ترجَى منه.
- ✓ وعَليه، فإنّ الخطوَة الأولَى تَقتَضي وَضعَ حَدٍّ لتعَلُّقنَا بآرَائنَا، والتَّحَرُّر منَ الأحكَام المسبَقَة، أَي كلَّ مَا قبلنَا به من دون أَن نخضعَه للاختبار، إخضَاع اليَقين للاختبَار.
- ✓ يَتَحَقَّق تَعَلُّمُ الشَّكِّ بشَكل تَدريجي. بدَاية، يَتَّجه الشَّك إِلَى الأَشيَاء الحسّية، ثمَّ يَنتَقل إِلَى الأَشيَاء المَعقولَة، ليَتَّسعَ الشَّك ويعَمَّم، ثمَّ يَصير مطلَقا. كلّ مَجَالاَت الوجود يَلحَقهَا الشَّكُّ.
- ✓ الأَجدَر الشّكّ في كل شَيء عَلى الاعتقَاد في شَيء غَير يَقيني.
- ✓ لَا نَعرف عَلى وَجه التحديد مخرَجات الشَّكِّ.
- ✓ الشَّك تَمرين مستَقِلٌّ إِرَاديٌّ.

- ✓ للتَّخَلُّص نهَائيا منَ اللَّا–يَقين (الرِّيبَة) يَجب القَبول بالذَّهَاب إلَى أَبعَد نقطَة ممكنَة عَلى طَريق الشّكّ لَكن يَجب الرِّضَا بالمَخَاطر الَّتي تَعترَضنا في سَبيل ممَارَسَة الشّك، وَلَعَلَّ أَهَمَّهَا خَطَر عَدَم التَّخَلُّص منَ الشَّكِّ.
- ✓ مَعَ ذَلكَ، لَا يَتَعَلَّق الأَمر بشَكٍّ مَحسوب، متَحكَّم به، موَجَّه نَحو تَأسيس العلم. فديكارت لَا يَشكُّ كَعَالم وَلَكن كَفَيلَسوف.
- ✓ وَلذَلكَ يَنبَغي أَن نميَّزَ الشَّكَّ في «التَّأَمُّل الأَوَّل» عَن الشكِّ في «مَقَالَة في المَنهَج»
- ✓ سَيذهَب ديكارت بشَكِّه ليَشمَل البَرهَنَة الّتي يَعتَمدهَا هوَ نَفسه (رَاجع الفَصلَ الرابعَ من «مَقَالَة في المَنهَج»).
- ✓ الشَّكُّ «حكمَة» المَنهَج: يَنبَغي تَجنُّب التَّهَوُّر وَالحكم المتَسَرِّع.
- ✓ مَنزلَة الشكِّ في «مَقَالَة في المَنهَج» لَا تَشمَل الأَشيَاءَ المَحسوسَة وَلَا تَشمَل العَقل، يَتَعَلَّق الأَمر بشكٍّ عَالم، بشكٍّ شَكَّاك منكر.
- ✓ يَتَعَلَّق الأَمر بشكِّ الفَهم، وَلَيسَ بشَكِّ الإرَادَة: الشَّكُّ هَنَا مقَيَّد وَمَحدود بقَوَاعدَ حَدَّدَهَا ديكارت في الفَصل الثالث من «مَقَالَة في المَنهَج».
- ✓ الشّكّ في «مَقَالَة في المَنهَج» يَشمَل فَقَط مَواضيعَ المَعرفَة وَطَريقَ مَعرفَة هَذه المَوَاضيع وَلَا يَشمل وجودَ العَالَم نَفسه.
- ✓ الشَّكُّ في «التأَملاَت الميتَافيزيقية» شكٌّ مرتَبط بالإرَادَة.
- ✓ وَحَيث أَن الإرَادَةَ الإنسَانيَّةَ لَا حَدَّ لَها، فَالشَّكّ المرتَبط بالإرَادة الإنسَانيّة هوَ نَفسه سَيكون لَا حَدَّ لَه.
- ✓ إنّ مَدْعَاةَ الشَّكّ في الْحَواسّ لَيْسَ لِكَوْنِهَا تَخْدَعُني فَحَسْب وَلَكِن لأَنَّهَا تَجْعَلُنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ شَيْئاً مَا لَهُ وُجُودٌ.
- ✓ يَشمَل الشَّكّ وجود الأَشيَاء التي كَشَفَ عنها العلم نَفسه.
- ✓ مع هَذا الشك يصبح الوَعي مشَوَّشا، وَالعَالَم غَريبا. والعَقل نَفسه مشَوَّشاً، أَشُكُّ أَنَّ 2+3=5. بهذا المعنى يَقود الشّكُّ إلَى أَزمَة المَعرفَة: فَالشّك لا يَشمَل فَقط مَعارف الإنسان ولكن أيضا إمكَانيّةَ المعرفَة لَدَى الإنسَان، إمكَانيّةَ أَن يَكُونَ الإنسَان ذَاتاً عَارفَةً أَصلاً.

> « […] il se peut faire qu'il [Dieu] ait voulu que je me trompe toutes les fois que je fais l'addition de deux et de trois, ou que je nombre les côtés d'un carré, ou que je juge de quelque chose encore plus facile, si l'on se peut imaginer rien de plus facile que cela.»

- ✓ عندَمَا افْتَرَضَ ديكارت أَنَّ اللهَ مُخَادِعٌ، فَهُوَ بِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ وَضَعَ مَوْضِعَ شَكٍّ الْأَفْكارَ الْأَكْثَرَ **وُضُوحاً وتَمَيُّزاً**: فَالبَدَاهةُ نَفسها مُشوَّشَة.

- ✓ **الأفكَار الوَاضحَة وَالمتَميّزَة** أَضْحَى مَشكُوكاً بِهَا، لَمْ يَعُدْ مُمْكِناً لِلْوُضُوحِ وَالتَّميُّزِ أَنْ يَكُونَا مِعْيَارَ الْحَقِيقَةِ.
- ✓ تَقْتَضي جذْريّة الشّكّ أَكثرَ منْ مجرّد تَوفّر أَسْبَاب لذَلكَ، فَلاَ ريْبَ أَنّ الشّكّ يزَعْزع كلّ مَا نَعْرف وَكلّ مَا هو مَعْروف لَدَيْنَا بدَاهَة، وَلذَلكَ فَهوَ يَستَثير مقَاوَمَة ضدّه، وَرَفضا لتَصديقه.
- ✓ وَلَعَلّ ذَلكَ كلّه مَدعَاة إلَى عَدَم الاكتفَاء بحجَج تبَرّر عَقليا الشّكّ، بَلِ الحَاجة مَاسّة إلَى حجَج للتّغلب عَلى تلكَ المقَاوَمَة، وَحُصُول الاقتناع الدَّاخليّ التَّامّ.
- ✓ تَبدو حجَّة خَطَأ الحَواس كَافية للشَّكّ في المَحْسُوسِ، غَيْر أَنَّهُ ليَبْدو الأَمْر أَكثَر إقْنَاعًا هنَاكَ حَاجَة إلَى المَزيد منَ الحجَج، وَلذَلكَ اسْتَعَانَ ديكارت بحجَّة **الأَحْمَق وَالحلْم**. واسْتَعَانَ بفَرضيّة **الإلَه المُضلّ** (المُخَادع) للشّكّ في الحَقَائق المَعقولَة، وَقَد دَعَّم هَذه الفَرَضِيَّةَ لتَبْدوَ مقنعة بفَرَضية **الشَّيطَان الخَبيث**، وَالحَقُّ أَنَّ هَذه الفَرَضيّةَ لَيسَت حجَّة، وَلَا مبرِّرا، بَل هيَ وَسيلَة للشّك المسْتَمر (الشّك الدّائم).

> «C’est pourquoi je pense que j’en userai plus prudemment, si, prenant un parti contraire, j’emploie tous mes soins à me tromper moi-même, feignant que toutes ces pensées sont fausses et imaginaires ; jusques à ce qu’ayant tellement balancé mes préjugés, qu’ils ne puissent faire pencher mon avis plus d’un côté que d’un autre, mon jugement ne soit plus désormais maîtrisé par de mauvais usages et détourné du droit chemin qui le peut conduire à la connaissance de la vérité. Car je suis assuré que cependant il ne peut y avoir de péril ni d’erreur en cette voie, et que je ne saurais aujourd’hui trop accorder à ma défiance, puisqu’il n’est pas maintenant question d’agir, mais seulement de méditer et de connaître.
>
> Je supposerai donc qu’il y a, non point un vrai Dieu, qui est la souveraine source de vérité, mais un certain mauvais génie, non moins rusé et trompeur que puissant qui a employé toute son industrie à me tromper.»

كَيْفَ يمْكن فَهْم اسْتعْمَال حجَّة الشَّيْطَان الخَبيث؟

اسْتعْمَال هَذه الحجَّة لتَحْقيق:

- الاقتنَاع بالحَاجَة إلَى الشَّكّ في كل شَيء؛
- رَفْع الحَواجز السيْكولوجية الّتي تقَاوم الشّكّ؛
- لَا يَتَعَلّقُ الأَمْر بِحَجَّة عَقْليَّة وَلَكِن بِحِيلَةٍ تَبْتَدعُهَا إرَادَةُ الشَّكِّ؛
- تَحْصين إرَادَة الشّك عَبْرَ خَلْق إرَادَة كَاذبَة (الإرَادَة الكَاذبَة: مَحْض خَيَال).

وَضَعَ ديكارت كُلَّ شَيءٍ مَوْضِعَ شَكٍّ:

«Je suppose donc que toutes les choses que je vois sont fausses ; je me persuade que rien n'a jamais été de tout ce que ma mémoire remplie de mensonges me représente ; je pense n'avoir aucun sens ; je crois que le corps, la figure, l'étendue, le mouvement et le lieu ne sont que des fictions de mon esprit.»

- ✓ يَدْفَعُ ديكارت بِالشَّكِّ فِي مَعَارِفِ الْعَقْلِ (فِي مَدَى وُجُودِ إِمْكَانِيَّةٍ وَقُدْرَةٍ لَدَى الْعَقْلِ عَلَى إِنْتَاجِ الْمَعْرِفَةِ)، لَكِنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي الْعَقْلِ نَفْسِهِ.

«Mais quoi ? ce sont des fous, et je ne serais pas moins extravagant, si je me réglais sur leurs exemples.»

- ✓ يَنْتَهِي الْأَمْرُ بِديكارت إِلَى رَفْضِ فَرَضِيَّةِ الْجُنُونِ (الْخَبَل)، فَالْمَجْنُونُ هُوَ بِالتَّعْرِيفِ مَرْفُوعٌ عَنْهُ القَلَمُ لأَنَّهُ لَا عَقْلَ لَهُ.
- ✓ فَكُلُّ فُقْدَانٍ لِلْعَقْلِ هُوَ فُقْدَانُ كُلِّ فُرْصَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، وَبِالتَّالي فَكُلُّ شَكٍّ، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَا مِصْدَاقِيَّةَ لَهُ بِقَدْرِ افْتِقَادِ الْآرَاءِ الْخَاطِئَةِ لِلْمِصْدَاقِيَّةِ.
- ✓ الْجُنُون هُوَ تَهْدِيدٌ لِلذَّاتِ كَكَائِنٍ عَاقِلٍ، وَمِنْ جَرَّاءِ هَذَا التَّهْدِيدِ، فَقَدْ أَنْكَرَ ديكارت الْجُنُونَ وَأَزَاحَهُ منْ فَرَضِيَّاتِهِ.
- ✓ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الشَّكَّ الدِّيكَارتيَّ هُوَ شَكٌّ عَقْلَانِيٌّ، أَيْ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ وَمُقتَضَيَاتِهِ.
- ✓ يَتَّخذ الشَّكُّ طَابَعا رَاديكَالياً وَهُوَ لِذَلَكَ يُفْصِحَ عَنْ حُرّيةٍ إِنْسَانِيَّةٍ لَا حُدُودَ لَهَا.
- ✓ بِإِمْكَانِ، وَمِنْ حَقّ، الْإِنْسَانِ أَنْ يَشُكَّ فِي كُلِّ شَيءٍ: يُمْكِنُهُ أَنْ يَرْفُضَ خِبْرَتَهُ الذَّاتِيّةَ الْمُتَّصِلَةَ بِهَذَا الْعَالَم وَكُلِّ مَعَارِفِهِ.
- ✓ لَا يُبْقِي الشَّكُّ إِلَّا عَلَى ذَاتٍ حُرَّةٍ لَا تَتَوَقَّعُ الْيَقِينَ إِلَّا مِنْ ذَاتِهَا نَفْسِهَا. وَلَنْ تَتَحَصَّلَ هَذِهِ الذَّاتُ عَلَى الْيَقِينِ مِنْ خَارِجِهَا، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَحوزَهُ منْ ذَاتِهَا، أَيْ مِنْ دَاخِلِ الذَّاتِ نَفْسِهَا.
- ✓ وَالْحَالُ، أَنَّ الشَّكَّ، مَنْ وَجْه آخَرَ، يَكْشِفُ عَنْ مَحْدُودِيَّةِ الذَّاتِ: قَدْ تقَاوِمُ هَذِه الذَّاتُ الشَّيْطَانَ الخَبِيثَ، وَتَمْنَعَه مِنْ أَنْ يَشْتَطَّ فِي اسْتِعْمَالِ حِيَلِهِ وَخُدَعِهِ، لَكِنْ فِي الْمُقَابِلِ لَيْسَ بِمَقْدُورِ هَذِهِ الذَّات أَنْ تُؤَكِّدَ شَيْئا أَبَداً.

« […] et si, par ce moyen, il n'est pas en mon pouvoir de parvenir à la connaissance d'aucune vérité, à

tout le moins il est en ma puissance de suspendre mon jugement.»

✓ إِزَاءَ الشَّيْطَانِ الْخَبِيثِ لَا تَمْلِكُ الذَّاتُ سِوَى أَنْ تَتَوَقَّفَ عَنْ إِصْدَارِ الْحُكْمِ:

«Qu'est-ce donc qui pourra être estimé véritable ? Peut-être rien autre chose, sinon qu'il n'y a rien au monde de certain.»

✓ يَبْدُو أَنَّ الشَّيْطَانَ الخَبِيثَ يَدْفَعُ الذَّاتَ إِلَى الشَّكِّيةِ الْمُؤَبَّدَةِ (الْارْتِيَابُ): لِتَجَنُّبِ الزَّلَلِ وَالْخَطَأِ، لَا مَخْرَجَ إِلَّا بِالتَّوَقُّفِ عَنْ إِصْدَارِ الأَحْكَامِ.

✓ لَا يُمْكِنُ الْخُرُوجُ مِنَ الشَّكِّ إِلَّا دَاخِلَ الشَّكِّ نَفْسِهِ. فَلَا يمْكِنُ لِلْيَقِينِ أَنْ يَنْشَأَ إِلَّا عَنِ الشَّكِّ ذَاتِهِ.

✓ لِيَكُونَ بِمَقْدُورِ حَقِيقَةٍ مَا أَنْ تَصْمُدَ أَمَامَ الشَّكِّ فَيَجِبُ أَنْ يَتَحَقَّقَ يَقِينُهَا وَيَتَأَكَّدَ مِنْ خِلَالِ مُمَارَسَةِ الشَّكِّ، وَهُوَ مِمَّا لَا يُمْكِنُ تَفَادِيهِ، هُنَاكَ دَائِماً مُبَرِّرٌ لِمُمَارَسَةِ الشَّكِّ.

✓ مُبَرِّرَاتُ الشَّكِّ خَارِجِيَّةٌ عَنْ مَضْمُونِ الْيَقِينِيَّاتِ وَهُوَ مَا يَجْعَلُهَا مَوْضِعَ شَكٍّ (وَتَسَاؤُلٍ) بِاسْتِمْرَارٍ.

✓ لَا يَشُكُّ ديكارت بَدَلاً عَنَّا، أَوْ نِيَابَةً عَنَّا.

• فِكْرَةُ الله في التَّأَمُّلاتِ: وَضْعِيَّتُهَا وَوَظَائِفُهَا

يقول ديكارت:

« J'estime les devoir maintenant avertir, qu'ayant tâché de ne rien écrire dans ce traité, dont je n'eusse des démonstrations très exactes, je me suis vu obligé de suivre un ordre semblable à celui dont se servent les géomètres, savoir est, d'avancer toutes les choses desquelles dépend la proposition que l'on cherche, avant que d'en rien conclure.»

- إِثْبَاتُ وُجُودِ الذَّاتِ بِمَا هِيَ كَائِنٌ مُفَكِّرٌ يَمُرُّ أَوَّلاً عَبْرَ تَجْرِبَةِ الشَّكِّ؛
- وَبِالْمِثْلِ، فَإِمْكَانِيَّةُ الْعُلُومِ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ الاقْتِنَاعِ بِأَدِلَّةِ وُجُودِ الله؛
- لَا يُمْكِنُ لِلْبَحْثِ المِيتَافِيزِيقِيِّ اكْتِشَافَ مَوَاضِيعه بِإِتِّبَاعِ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ المِيتَافِيزِيقِيَّةَ تَقْتَضِي نِظَامَ اكْتِشَافٍ يَقُومُ عَلَى الشَّكِّ قَبْلَ الْوَعْيِ بِوُجُودِ الذَّاتِ كَوُجُودٍ بَدِيهِيٍّ، وَهَذَا الْمُقْتَضَى يَسْبِقُ بِالضَّرُورَةِ إِثْبَاتَ وُجُودِ الله وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ؛

- نِظَامُ الاكتِشَاف هَذَا هُوَ مِن مُوجِبَات الطَّبِيعَةِ الإنسَانِيَّةِ. لَيسَ بِإمكَانِ الإنسَانِ اكتِشَاف مَا هُوَ إلاَّ فِي مُوَاجَهَةِ العَالَمِ ابتِدَاء (بِمُوَاجَهَةِ وُجُودِ العَالَمِ وبِمُوَاجَهِة المَعرِفَةِ الَّتِي بِحَوزَتِهِ) ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ بِأَن يُحَدِّدَ نَفسَهُ إزَاءَ خَالقِهِ (الله).

✓ لَا حَاجَةَ إِلَى مَعَارِفَ مُعَيَّنَة وَمُسبَقَة لِإتِّبَاعِ البَرهَنَةِ الدِّيكَارتية، يُمكنُ فَهمُ استِنتَاجَاتِها طَالَمَا لَم تُربَك حَرَكَةُ البَرهَنَة وَانتِظَامُها دَاخِلَ النصّ.

✓ لِتَحقيقِ ذَلكَ، سَعَى ديكَارت إِلَى التَّخَلُّصِ مِن مَعَارِفِهِ القدِيمَةِ، بِدَايَة مِنَ (التَّأَمُّلِ الأَوَّلِ)، لِأَنَّهَا لَم تَكُن مَبنيَّة بِطَرِيقَة مُرْضِيَّةٍ (مُقْنِعَةٍ). أُزِيحَت كُلُّ الْمُسْبَقَاتِ، وَسُلِّمَتِ القِيَّادَة للنُّورِ الطَّبِيعِيّ، أَيْ لْلعَقلِ.

✓ لَكِنَّ عَلَى الْعَقلِ أَنْ يَتَقَيَّدَ بِاحْتِرَامِ النِّظَامِ الَّذِي يُبْقِي الْفِكرَ فِي دَائرةِ الْبَدَاهَةِ.

✓ وَأَمَّا تَعَلُّقُ دِيكارت بِهَذَا النِّظَامِ فَلِأَنَّهُ يُمَثِّلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مِعْيَارَ الْحَقِيقَةِ وَالْبَدَاهَةِ.

✓ وَعَلَيْهِ، فَإِنْ تَطَلَّبَت فِكرَةٌ مَا فِكرَةً أُخْرَى لِكَي تُصْبِحَ مَفْهُومَةً، حِينَهَا يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَدْرُسَ الأَخِيرَةَ أَوَّلاً. لِأَنَّ دِيكَارت يَتَّبِعُ البَدَاهَةَ تِلْوَ البَدَاهَةِ وِفْقاً لِمَا يُمْلِيهِ هَذَا النِّظَامُ وَإِلَّا افْتَقَدَت بَرْهَنَتُهُ كُلَّ بَدَاهَةٍ.

✓ تُوجَدُ، بِهَذَا الْمَعْنَى، تَرَاتُبِيَّةٌ يَحْسُنُ احْتِرَامُهَا: فَبَعْضُ الْأَفْكَارِ أَكْثَر بَدَاهَةً مِن أُخْرَى، وَبِالتَّالِي هِيَ الْأَولَى بِالْبَحْثِ.

✓ بَدَاهَةُ وُجُودِ الرُّوحِ أَكْثرُ وُضُوحاً مِنَ البَدَاهَاتِ الرِّيَاضِيَّةِ (2+3=5)، إِذْ بِمُمَارَسَتِي للشَّكِّ أَتَأَكَّدُ مِن وُجُودِي.

✓ التَّأَكُّدُ مِن وُجُودِي لَا يَقتَضِي فِكْرَةً سَابِقَةً (مُسْبَقَةً)، بَيْنَمَا مَعْرِفَة 2+3=5 تَقْتَضِي مَعْرِفَةُ أَنَّ الله لَا يُضِلُّنِي (لَا يَخْدَعُنِي).

يقول ديكارت:

> « […] la certitude et la vérité de toute science dépend de la seule connaissance du vrai Dieu, en sorte qu'avant que je le connusse je ne pouvais savoir parfaitement aucune autre chose.»

✓ تَوَجّهَ ديكَارت فِي «التَّأَمُّلاَتِ المِيتَافِيزِيقِيَّةِ» فِكرَة أَنّ اللهَ لَمْ يَخلُق طَوَاعِيَّةً العَالَمَ فَقَط وَلَكِن خَلَقَ أَيْضاً الْحَقَائِقَ الْمَنطِقِيةَ وَالرِّيَاضِيَّةَ.

✓ الْخَلْقُ حُرٌّ وَتَعْبِيرٌ عَنِ التَّحَكُّمِ، فَاللهُ قَرَّرَ أَنَّ 2+2=4، وَكَانَ بِإمكَانِهِ أَن يَجْعَلَ 2+2=3، فَاللهُ هُوَ خَالِقُ الْقَوَاعِدِ وَالْمُعَادَلَاتِ؛

✓ قَوَاعِدُ الْبَرهَنَةِ نَفسُهَا لَمْ يَكُن لَهَا وُجُودٌ قَبلَ الْقَرَارَاتِ الْإِلَهِيَّةِ بَلْ إِنَّ اللهَ هُوَ مَنْ أَوْجَدَ قَوَاعِدَ هَذِهِ البَرهَنَةِ؛

- ✓ لَا وُجُودَ لِحَقَائِقَ أَوْ أَفكَارَ عِنْدَ الله (أَوْ فِيهِ) تَحَكَّمَت فِي عَمَلِيَّةِ الْخَلقِ، بَلِ اللهُ أَوْجَدَ كُلَّ شَيءٍ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وَأَبْدَعَ كُلَّ شَيءٍ؛
- ✓ هُنَا يَكْمُنُ الْفَرْقُ، بَيْنَ الله وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ. يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى قَوَاعِدَ مَنْطِقِيَّةٍ بِدُونِهَا لَا يَسْتَطِيعُ مُمَارَسَةَ التَّفْكِيرِ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْمَنطِقِيَّةِ، مُسْتَغْنٍ عَنْهَا؛ وَاللهُ هُوَ مَنْ أَرَادَهَا أَنْ تَكُونَ ضَرورِيَّةً لَنَا؛
- ✓ مَا هُوَ ضَرُوريٌّ لِلْإِنْسَانِ، لَيْسَ ضَرُورِيّاً للهِ؛
- ✓ اللهُ فَوْقَ قَوَانِينِ الْمَعْرِفَةِ؛
- ✓ إِنَّ الْحَقَائِقَ الَّتِي خَلَقَهَا الله، بِشَكْلٍ حُرٍّ وَاخْتِيَارِيّ، لَيْسَت جَمِيعُهَا فِي مُتَنَاوَلِ عَقْلِ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنَّهَا تَحْتَرِمُ الْعَقْلَانِيَّةَ احْتِرَاماً كَامِلاً. عِنْدَمَا خَلَقَ اللهُ الْحَقَائِقَ الْمَنطِقِيَّةَ وَالرِّيَاضِيَّةَ بِإِرَادَتِهِ الطَّوْعِيَّةِ الْحُرَّةِ الْمَحْضَةِ فَهُوَ لَمْ يَخْلُقهَا مُجَرّدَةً مِنَ المَعْقُولِيَّةِ بَلْ خَلَقَ قَوَاعِدَ الْعَقلاَنِيةِ؛
- ✓ أَمَّا الْحِكْمَةُ مِنْ جَعْلِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ أَبَدِيَّةً فَتَعُودُ إِلَى إِرَادَةِ الله فِي أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُتَحَوِّلَة لِتَكُونَ مَعْرِفَتُنَا بِهَا مَعْرِفَةً يَقِينِيةً؛
- ✓ وَهَذَا يَصْدُقُ أَيْضاً عَلَى الْحَقَائِقِ الرِّيَاضِيّةِ وَالفِيزْيَائِيَّةِ الَّتِي لَوْ لَا اللهُ لَمَا اسْتَمَرَّ وُجُودُهَا؛
- ✓ اللهُ هُوَ الخَالِقُ الأَبَدِيُّ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ.
- ✓ اللهُ مَصْدَرُ الْحَقِيقَةِ؛
- ✓ اللهُ ضَامِنُ الْحَقِيقَةِ؛
- ✓ اللهُ أَسَاسُ كُلِّ عِلْمٍ وَكُلِّ مِيتَافِيزِيقَا؛
- ✓ لَيْسَ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ مِقْيَاس الْحَقِيقَةِ؛
- ✓ لِاكْتِشَافِ أَسَاسِ الْعِلْمِ يَنبَغِي الْعَوْدَةُ إِلَى الله؛
- ✓ إِنَّ صِدْقَ الْأَفْكَارِ الرِّيَّاضِيَّةِ مِنْ صِدْقِ الله؛
- ✓ لِلْخُرُوجِ مِنَ الشَّكِّ فِي الْمَعْرِفَةِ الرِّيَّاضِيَّةِ وَالْفِيزِيائِيّةِ يَجِبُ التَّأَكُّدُ مِن صِدْقِيَّةِ الله، وَمِن ثَمَّ وَجَبَ تَحْدِيدُ مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ عَنِ الله. لَا يُمْكِنُ لِلْمُلْحِدِ أَنْ يَكُونَ رِياضِيّاً لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّأَكُّدِ مِن مَعَارِفِهِ.
- ✓ هَلْ يُعِيدُ دِيكَارت الْمَعْرِفَةَ الرِّياضِيَّةَ وَالْفِيزِيائِيَّةَ إِلَى قَبْضَةِ اللَّاهُوتِ؟
- ✓ الرِّياضِيَّاتُ وَالْفِيزِيَّاءُ عِلْمَيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ لَهُمَا مَنْهَجُهُمَا الْخَاصّ بِهِمَا وَلَا مَجَالَ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالرِّعَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِتَفْسِيرِ الظَّوَاهِرِ. فِي الْمُقَابِلِ فَإِنَّ كُلاً مِنْهُمَا لَا يُمْكِنُهُمَا أَنْ يُوجَدَا مِنْ فَرَاغٍ أَوْ مِنْ تِلْقَاءِ ذَاتِهِمَا فَإِنَّهُمَا لَا يَكْتَفِيَانِ بِذَاتِهِمَا لِتَبْرِيرِهِمَا عَلَى الْمُسْتَوَى الْمِيتَافِيزِيقِيّ.
- ✓ وفْقاً لِلْفِكْرَةِ الَّتِي لَدَيَّ عَنِ الله تَكُونُ مَعْرِفَتِي مُمْكِنَةٌ أَوْ غَيْرَ مُمْكِنَةٍ.